ديوانُ آلِ البيت :

وديوانُ آلِ البيتِ بالدَّمعِ أكتُبُ
وبالدَّمِ مِنْ قلبي وبالحبرِ أسكُبُ

(١)

قصيدة

أمِّ المؤمنين زينبَ بنتِ جحشٍ
رضي الله تعالى عنها

بقلم

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقًا)

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

وقف على معهد الدراسات القرآنية للبنات بمكة المكرمة

العنوان: ١٣ شارع الحضارة . الرصيفة

خلف مسجد الأمير أحمد

ص.ب ٩٥٠٩ ، رمز بريدي ٢١٩٥٥

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا العمل بعنوان: قصيدة أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، عبارة عن قصيدة بائيّة في بحر الطّويل تقع في ١٠٢٦ ألفٍ وستّة وعشرين بيتًا. ومطلعها

ومَنْ زَوَّجَ طه طاعةَ اللهِ تَكْسِبُ ... وطاعَتُهُ إيّاها الأُمَّ زَيْنَبُ

وتسبق القصيدة دراسةٌ موجزةٌ تتعلّق ببعض القضايا الّتي تعين على فهم القصيدة.

والحقيقة أنّ هذه القصيدة يمكن أن يُنظَرَ إليها على جهة الخصوص من ثلاث زوايا.

الزّاوية الأولى. إذا كانت هذه القصيدة أولى قصائد ديوان آل البيت، وكُتبت في صفحة العنوان هذا البيت:

وديوانُ آلِ البيتِ بالدَّمْعِ أكْتُبُ ... وبالدَّمِ مِنْ قَلْبي وبالجَمْرِ أشْكُبُ

ممّا يُفهَمُ منه أنّ هذه القصيدة هي أولى قصائد ديوان آل البيت، فالحقيقة أنّ هذه القصيدة هي القصيدة الثّانية وليست الأولى. أمّا القصيدة الأولى فهي القصيدة العلويّة في سيرة عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وهي القصيدة الرّابعة تحت عنوان: القصائد العطرة، من المبشّرين بالجنّة العشرة، وهي قصيدةٌ بائيّةٌ في بحر البسيط تقع في ستّمائة وثمانية أبيات ومطلعها:

بقتلِ عثمانَ قبلَ الأمنِ يضطربُ ... وذا عليٌّ يُنيلُ الصّمصامَ ما طلبوا

الزّاوية الثّانية أنّ قصيدة أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، أُريدَ لها أن تخدم سورة الأحزاب المدنيّة

الكريمة التي تحدثت من بين قضايا ما الكثير، تحدثت عن قضية واحدة بعينها، بأكثر من أية سورة أخرى، وهي قضية التبني، وإنزال العرب المتبنى منزلة الابن من الصلب، وقضت على ظاهرة التبني من أولها نظريا، ثم قضت عمليا على ظاهرة التبني عمليا، حينما أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها البكر لمتبناه زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ففعل، وتم الزواج فعلا. وقد أوحى الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الحياة الزوجية بينهما لن تطول، وأنها ستطلق من زيد، وبعد انتهاء عدتها ستكون رضي الله تعالى عنها أما للمؤمنين. لقد تم كل ذلك. وكما خطب النبي صلى الله عليه وسلم لزيد زينب البكر، تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب الثيب.

لقد زلت أقلام العديد من المفسرين والمؤلفين، بحسن نية، أو بسوء قصد، بشأن الآيات الكريمات التي تحدثت عن هذا الزواج، وبخاصة بشأن هذه الجزئية من الآية الكريمة السابعة والثلاثين: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ والمعنى، وتخفي يا محمد من نفسك ما أوحيته إليك من أن زيدا سيطلق زينب، وبعد انقضاء عدتها ستكون زوجتك وتكون أما للمؤمنين. إن ما أخفيته يا محمد من نفسك الله تعالى مبديه، وهاهي ذي زينب زوجتك. وأنت أخفيت ذلك خشية أقوال الملفقين أن يقولوا تزوج مطلقة ابنه زيد. إن زيدا ليس ابنك، إنما هو زيد بن حارثة وليس زيد بن محمد. فمن حقك ومن حق كل متبنى

أن يتزوج مطلقة متبنّاه. إنّ الله تعالى وحده لا شريك له أحقّ أن تخشاه وليس المنافقين ومن لفّ لفّهم.

لقد سبق لنا بفضل الله تعالى أن بيّنّا هذه الحقائق من ثلاثة أعمال. من تأمّلات من سورة الأحزاب، ومن التفسير البسيط للقرآن الكريم، ومن لمحات من إعجاز سورة الأحزاب.

إنّ قصيدة أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها تمثّل توظيفا لغاية ذاتها.

والحقيقة أنّ ثمّة سورة أخرى من القرآن الكريم خاض فيها المفسّرون والمؤلّفون بحسن نيّة أو بسوء قصد، وهي سورة يوسف عليه السّلام، وبخاصّة الآية الكريمة الرّابعة والعشرون. قال تعالى: ﴿ولقد همّت به. وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه. كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء. إنّه من عبادنا المخلصين﴾

ولقد سبق لنا بفضل الله تعالى أيضا أن بيّنّا هذه الحقائق من أربعة أعمال. من كتاب الوحدة الموضوعيّة من سورة يوسف عليه السّلام، ومن التفسير البسيط للقرآن الكريم، ومن محاضرة بعنوان: دروس مستفادة من قصّة يوسف عليه السّلام، ومن قصيدة يوسف الصّدّيق عليه السّلام. وهي قصيدة رائيّة من بحر الرّمل تقع من ٣٠٦ ثلاثة آلاف وستّة وستّين بيتا ومطلعها:

يوسف الصّدّيق فاق القمرا ... ليلة التّصنيف بأفق عبرا

لقد وظّفت هذه القصيدة لخدمة سورة يوسف عليه السّلام، كما وظّفت قصيدة أمّ المؤمنين زينب عليها السّلام

لخدمة سورة الأحزاب المدنية الكريمة.

الزاوية الثالثة هي أن قصيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها بينت بعض المعلومات الضرورية عن كل من زينب وزيد رضي الله تعالى عنهما. إن زينب رضي الله تعالى عنها حينما خطبها النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله تعالى لزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه كانت في السادسة والثلاثين، وحينما زوجها الله تعالى من فوق سبع سماوات محمداً صلى الله عليه وسلم كانت في الثامنة والثلاثين.

وإن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه كان صبياً عربياً حراً حينما سرقه قطاع الطرق واسترقوه وباعوه في سوق عكاظ. لقد أنعم الله تعالى على زيد بنعمة الإسلام، فهو من أوائل السابقين إلى الإسلام، وقد أنعم عليه محمد صلى الله عليه وسلم بالعتق من الرق فعاد حراً كما كان قبل أن يُسترق ويسترق.

لقد بينت هذه القصيدة الكثير من المعاني المرتبطة بسورة الأحزاب المدنية التي كثر حديثها عن زينب وزيد رضي الله تعالى عنهما.

والله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وينفع به، ويثيب عليه، إنه جواد كريم. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

صبيحة يوم الخميس ٢٤/٦/١٤٣٨هـ كتبه الفقير إلى عفو ربه

الموافق ٢٠١٧/٣/٢٣م أ.د. حسن محمد باجودة

مكة المكرمة أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

تمهيد:

أشرنا في المقدمة إلى بعض الأمور التي تحدثت فيها قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، كما أشرنا إلى أهم معالم حياة أم المؤمنين زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما. وسوف يتناول التمهيد بعض الأمور التي تعرضت لها القصة، وهي على النحو التالي:

- يا أيها الذين لم تحرم ما أحل الله لك
"ما جعل الله تعالى أدعياءكم أبناءكم"
"إذا قضى الله ورسوله أمرًا، فليس لمؤمن ولا مؤمنة حق الاختيار"
- لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
"ما كان محمد أبا أحد من رجال المؤمنين فمن حقه أن يتزوج مطلقة متبناه"
"آيات الحجاب"

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك؟﴾

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا
فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ
﴿٣﴾ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ
بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا
خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ
ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

أسباب النزول:

تعددت في كتب التفسير والأحاديث الصحاح أسباب نزول الآيات الكريمات من سورة التحريم المدنية الكريمة. ونحن سنختار سبب النزول الذي أوحى بالحديث عنه في قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضيا الله تعالى عنها. وكل أسباب النزول تتحدث عن سر النبي صلى الله عليه وسلم الذي قصه إحدى زوجاته بكتمانه فأذاعته وأفشته. وذلك أزعج النبي صلى الله عليه وسلم. لقد كشف الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم حقيقة الأمر. وهذا السر هو تحريم النبي

صلى الله عليه وسلم شرب العسل عند أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها. لقد أودع صلى الله عليه وسلم السر عند أم المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها، فأفضت بذلك السر إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (١)

وفي رواية أخرى صحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم على نفسه سُرّيته مارية القبطية، أم ولده إبراهيم، إرضاءً لأم المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها (٢)

وبين يدي التفسير الموجز للآيات الكريمة ثمة لطيفة نود أن نشير إليها، وهي أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن ضرتين. عائشة وسودة وحفصة وصفية في حزب، وزينب بنت جحش وأم سلمة والباقيات في حزب (٣)

وإليك ما جاء في سبب النزول المتعلق بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، وتحريم شرب العسل عندها. روى البخاري في صحيحه (٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها. فواطأت أنا وحفصة

---

(١) فتح الباري ٨/٦٥٦ حديث رقم ٤٩١٢ وانظر ١١/٥٧٤ حديث رقم ٦٦٩١.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/١٠١

(٣) فتح الباري ٩/٣٧٦

(٤) فتح الباري ٨/٦٥٦ حديث رقم ٤٩١٢ وانظر ١١/٥٧٤ حديث رقم ٦٦٩١

عن أيتنا دخل عليها فلتقل له (١) أكلت مغافير؟ (٢) إني أجد منك ريح مغافير. قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش. فلن أعود له. وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحدا. ه

وروى البخاري في صحيحه (٣) أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجا فخرجت معه. فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك (٤) لحاجة له. قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه فقال: حفصة وعائشة... الحديث.

---

(١) على سبيل الاستفهام وأردن التعريض. انظر فتح الباري ٩/٣٤٢

(٢) المغافير جمع مُغفور بضم الميم: صمغ حلو له رائحة كريهة. فتح الباري ٩/٣٧٧ والمغافير صمغ ينضح به شجر العُرفُط صحيح مسلم ٢/١١ حاشية رقم ٣

(٣) فتح الباري ٨/٦٥٧ حديث رقم ٤٩١٢ و ١١/٥٧٤ حديث رقم ٦٧٩١ وصحيح مسلم ٨/١١

(٤) الأراك: شجرة طويلة غضة ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوارة العود يستاك بغضه وعليها صحيح مسلم ٨/١١ حاشية رقم ٣ وجاء في فتح الباري ٨/٦٥٩ حديث رقم ٤٩١٥: "فلما كنا بظهران" وهو واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها ظهران تضاف إلى هذا الوادي فيقال مر الظهران معجم البلدان: الظهران. ويسمى وادي فاطمة حاليا أو الجموم.

ومعنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم، يا أيها النبي العظيم، لِمَ تحرّم ما أحلّ الله تعالى لك، من شرب العسل، أو فتياتك ماريةَ القبطيةَ، أم ولدك إبراهيم، تبتغي بذلك التحريم مرضاة زوجاتك، وبخاصة عائشة وحفصة، رضوان الله تعالى عليهنّ. والله تعالى غفورٌ ذنب من سأله المغفرة، رحيمٌ أن يعذّبه بعد أن غفر ذنبه، وقبل توبته.

قد فرض الله تعالى لكم، أيها النبي الكريم وأيها المؤمنون، الكفارة التي تنحلّ بها عُقَدَة أيمانكم إذا حنثتم في أيمانكم ولم تبرّوا فيها. لقد بيّنت الكفارة حال الحِنْث في الآية الكريمة التاسعة والثمانين من سورة المائدة، قال عزّ من قائل: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم. واحفظوا أيمانكم. كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون.

والله تعالى مولاكم وناصركم يا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم. وهو عزّ وجلّ العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، كما لا يخفى عليه ما يصلح به حالكم من أحكام، الحكيم في صنعه وتقديره وتدبيره وفي كلّ شيء.

واذكر إذ أسرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بعض أزواجه، هي حفصة رضي الله تعالى عنها،

حديثاً، وهو تحريمه صلى الله عليه وسلم على نفسه الشريفة العسل الذي كان يشرب به عليه الصلاة والسلام من بيت زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، أو تحريمه أم ولده إبراهيم مارية القبطية.

فلما نبأت به وكشفت عنه وأذاعت سر النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله تعالى عنها، وأظهره الله تعالى عليه، وبين له إذاعة حفصة السر لعائشة رضي الله تعالى عنهما، عرف النبي صلى الله عليه وسلم بعضه لحفصة، وأعرض عن بعض تعففاً وسكت عن بعض ما عرفه الله تعالى عليه وليلاً على خلقه العظيم ونفسه الكبيرة عليه صلوات الله تعالى وسلامه. فلما نبأ النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بما أوحى الله تعالى به إليه قالت مزعجة: من أنبأك هذا؟ ظناً منها أن عائشة رضي الله تعالى عنها هي التي أنبأته. قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: نبأني الله تعالى العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الخبير العليم ببواطن الأمور وظواهرها.

إن تتوبا إلى الله تعالى يا عائشة ويا حفصة، وقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم العسل أو مارية، فإن الله تعالى يقبل توبتكما. ونستطيع أن نفهم أنهما رضي الله تعالى عليهما قد تابتا إلى الله تعالى.

وإن تتظاهرا عليه وتتعاونا يا عائشة ويا حفصة،

فإن الله تعالى صانه وحرسه، وجبريل عليه السلام، وصالح المؤمنين كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. والملائكة وراء ذلك أعوان له صلى الله عليه وسلم ونصراء.

عسى ربه جلّ وعلا إن طلقكن النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم، أن يبدله ويعوضه أزواجاً خيراً منكن وأفضل، مسلمات لله تعالى رب العالمين، مؤمنات قد طبقن كل أركان الإيمان، مطيعات لله تعالى، تائبات إلى الله تعالى راجعات إليه بالتوبة النصوح، عابدات لله تعالى خاضعات خاشعات متذللات، صائمات، أو سائحات ذهنياً ومعنوياً بالتفكر في ملكوت الله تعالى. أو سائحات حسياً حين التستر في الأرض بالنظر والتدبر، ثيبات قد تزوجن من قبل، وأبكاراً لم يتزوجن من قبل (1)

(1) انظر التفسير البسيط للقرآن الكريم ٢٨/٣٠٤-٣٠٦ وذلك في موقع بالإنترنت: المؤسسة الدكتور حسن محمد باجودة.

« ما جعل الله تعالى أدعياءكم أبناءكم »

سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة نزلت في نهاية السّنة الخامسة من الهجرة. والمعروف أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عاش بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة عشر سنوات. وبفضل الله تعالى بنى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد الهجرة المجتمع المسلم، والدّولة الإسلاميّة، والأمّة المسلمة. وقد أسهمت سورة الأحزاب في عمليّة البناء هذه.

وعمليّة البناء تعني عمل كلّ خير، والتّخلّص من كلّ شرّ. وقد كان في المجتمع العربيّ مجموعة من الشّرور، الّتي ينبغي التّخلّص منها. وبعض هذه الشّرور طردتها سورة الأحزاب وتخلّصت منها. وأوّل هذه الشّرور زعم بعضهم أنّ ثمّة قرشيًّا له عقلان اثنان يعقل بكلّ منهما بأفضل من عقل محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وثانٍ هذه الشّرور إنزال الزّوجة الّتي ظاهر منها زوجها منزلة الأمّ في الحرمة. إنّ ذلك كذبٌ عقوبته الكفّارة. وثالث هذه الشّرور إنزال المتبنّى منزلة الابن من الصّلب، بما في ذلك الميراث، ومنع المتبنّى من الزّواج بمطلّقة متبنّاه. إنّ المرأة الّتي تحرم هي مطلّقة الابن من الصّلب وليست امرأة الشّخص الغريب المتبنّى.

والأمر الثّالث هو أهمّ الأمور الثّلاثة، ولهذا أطالت الآيتان الكريمتان الثّنتان تحدّثتا عن القضايا الثّلاث، أطالتا الحديث عن القضيّة الثّالثة. ثمّ إنّ السّورة الكريمة الّتي قضت على أوّلها على هذه العادة البغيضة نظريًّا، قضت عليها بعد ذلك عمليًّا، حينما تزوّج

النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، مطلقة متبنّاه زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، الذي تبنّاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل البعثة فكان يُدعى زيد بن محمد. وإليك الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب. قال تعالى

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي
جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ
يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم
بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

المعنى: والله تعالى أعلم، ما جعل الله تعالى لرجل واحد من قلبين في جوفه، خلافاً لزعم قريش بأنّ ثمّة رجلاً قرشيّاً له قلبان اثنان، يعقل بكلّ واحد منهما بأفضل من عقل محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم، وذلك بقول الرّجل لزوجته إذا أراد أن يطلّقها، أنت عليّ كظهر أمّي، والمراد أنت عليّ في الحرمة كبطن أمّي، ولكنّهم أكرموا الأمّهات فجعلوا البطن ظهراً. والمعروف أنّ سورة المجادلة تحدّثت عن الظهار، ولم تجعله طلاقاً وجعلت فيه الكفّارة (1) وما جعل

(1) سورة المجادلة آية

الله تعالى أدعياءكم أبناءكم فمن حقّ المتبنّى أن يتزوج مطلّقة متبنّاه بعد انقضاء العدّة، ومن حقّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم أن يتزوّج زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، مطلّقة متبنّاه زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه.

إنّ إنسانكم المتبنّى منزلة الابن من الصّلب قولٌ لا أساس له من الصّحّة وادّعاءٌ يجري على أفواهكم. والله تعالى يقول الحقّ ويهدي إلى سواء السّبيل.

ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله وأعدل. فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وأصدقاؤكم. وليس عليكم جناح ولا ذنب ولا إثم ولا حرج فيما أخطأتم به. ولكنّ الحرج هو ما تعمّدته قلوبكم من إخفاء الحقيقة، أو عدم الجدّ والصّدق في البحث عن الحقيقة.

وكان الله تعالى غفوراً ذنب من يستغفره، رحيماً به أن يعذّبه بعد أن غفر له ذنبه وقبل توبته.

« إذا قضى الله ورسوله أمرًا فليس لمؤمن ولا مؤمنة حق الاختيار »

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

الآية الكريمة تجيء بعد الآية الكريمة التي تذكر مجموعة من نعوت المؤمنين والمؤمنات. وهذه الآية الكريمة تؤكد فحوى تلك المعاني وتقرر أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة، ولا يصح ولا يحق، إذا قضى الله تعالى ورسوله أمرًا، أن يكون لأحد من مؤمن ولا مؤمنة، حق الاختيار بالقبول أو الرفض. إنما يجب على كل واحد منهما الطاعة المطلقة.

والعبرة كما هو معروف بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والآية الكريمة نزلت أساسًا عن زينب بنت جحش وأخيها عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنهما، حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل جاهدًا على إقناع زينب رضي الله تعالى عنها مع أخيها عبد الله رضي الله تعالى عنه، بأن ترضى زينب للبكر بالزواج من زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه.

حينما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بيت زينب رضي الله تعالى عنها، ظنت هي، كما ظن أخوها، بأن النبي صلى الله عليه وسلم جاء يخطبها لنفسه فقرحا. وحينما علما أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما جاء يخطبها لزيد بن حارثة استنكفا أن تتزوج زينب، ذات الحسب والنسب، زيد بن حارثة. اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في إقناع زينب وفي

إقناع أخيها. ولم تعلم زينب ولم يعلم أخوها أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما جاء يخطبها وهي البكر لزيد، بأمر من الله تعالى وحي.

وفي أثناء اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في محاولة إقناع زينب على جهة الخصوص بقبول زيد زوجاً، نزلت الآية الكريمة.

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة، وما كان يصح ولا يجوز، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهما حق الاختيار (١) بالقبول أو الرفض، إنما يلزمهما الطاعة بالقبول. ومن يعص الله تعالى ويعص رسوله صلى الله عليه وسلم فقد ضل ضلالاً مبيناً، وابتعد عن الصراط المستقيم بعداً واضحاً.

حينما سمعت زينب الآية الكريمة يتلوها النبي صلى الله عليه وسلم بادرت إلى قبول زيد بن حارثة زوجاً لها، كما بادر أخوها عبد الله، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهكذا تزوج زيد بن حارثة الكلبي رضي الله تعالى عنه، زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، ابنة عمة محمد صلى الله عليه وسلم، ذات الحسب والنسب.

---

(١) الجلالين.

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

هذه الآية الكريمة الحادية والعشرون من سورة الأحزاب المدنية الكريمة جاءت في أثناء حديث السورة عن ملابسات غزوة الأحزاب أو الخندق. وهذه الغزوة تكاد تكون أشق الغزوات من الوجهة النفسية على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، لقد كان لكم دائما وأبدا يا أيها المؤمنون في محمد صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقدوة مثلى، لمن كان منكم يرجو ثواب الله تعالى، ويرجو ثواب اليوم الآخر، ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا، بقلبه، ولسانه، وجوارحه.

وهذه الآية الكريمة مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم. لأن الله سبحانه وتعالى هيأ كل الأسباب التي تجعل شخصية محمد صلى الله عليه وسلم معروفة لكل إنسان، وسيرته كاملة من النواحي العلمية، والعملية، والشمولية، بحيث يتسنى لكل مسلم أن يجعل محمدا صلى الله عليه وسلم أسوته المثلى، وقدوته العظمى.

وليس صنائع الشخصية الأخرى، التي يمكن اتخاذها أسوة حسنة، بما فيها أشهر شخصية

بعد محمد صلى الله عليه وسلم، هي شخصية عيسى عليه الصلاة والسلام.

إن كل الذي يُعرف عن حياة عيسى عليه السلام يتعلق بالخمسين يومًا الأخيرة من حياته عليه الصلاة والسلام، ثم هو مختصر من الروحانيات، والحياة، كما هو معروف، روح وجسد، معنويات ومحسوسات.

وإذا كان هذا ما يقال عن عيسى عليه السلام، لذا لا يمكن اتخاذه أسوة حسنة، بسبب نقص سيرته نقصًا كبيرا، فما يقال عن الآخرين أكثر، بسبب الشح من المعلومات، ابتداءً بموسى عليه الصلاة والسلام.

"ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي
أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

معنى الآيات الكريمات، والله تعالى أعلم، واذكر يا محمد، إذ تقول للذي أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإسلام، وأنعمت عليه بالعتق، وهو زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، وقد ساءت العلاقة بينه وبين زوجته زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، وهم أن يطلقها، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما عزم عليه من أمر الطلاق، أمسك عليك زوجك واستبقها، واتق الله في أمرها ولا تطلقها، وتخفي يا محمد في نفسك ما أوحيت به إليك من طلاق زيد زينب، وبعد انقضاء عدتها ستكون أمًّا

بمؤمنين، وتخشى الناس والله تعالى أحقُّ أن تخشاه، وتخالف المنافقين أن يقولوا ما اعتادوا عليه من ادعاء وكذب، بأن يقولوا: تزوج محمد مطلقة ابنه الذي تبنّاه، وبذلك يخالف محمد ما جاء به وأمر من منع الأب من زواج مطلقة ابنه. إنّ المنافقين ومن تلفّ لفّهم يعلمون أنّ زيدًا هو ابن حارثة، وليس ابن محمد، ولكنّ المنافقين اعتادوا الكذب وما يفوه.

وإليك أهمّ نقطة قرّبت، وأصحّ ما قيل في تفسير الآية الكريمة. وصوّب في تفسير القرطبيّ (١) يقول القرطبيّ، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة: «عن علي بن الحسين [ابن عليّ] (٢) أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان قد أوحى الله تعالى إليه أنّ زيدًا يُطلّق زينب، وأنه يتزوّجها بتزويج الله إيّاها. فلمّا تشكّر زيدٌ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم خُلُق زينب، وأنّها لا تطيعه، وأعلمه أنّه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على جهة الأدب والوصيّة، اتّقِ الله في قولك وأمسك عليك زوجك، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوّجها. وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يُرِدْ أن يأمره بالطلاق بما علم أنّه سيتزوّجها. وخشي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يلحقه قولٌ من الناس في أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها. فعاتبه الله

(١) تفسير القرطبي ٢٧٢/١٤
(٢) هذه الزيادة من فتح الباري ٨/٤٢٥

تعالى على هذا القدر من أن خشيَ الناس من شيء قد أباحه الله له، بأن قال: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ مع علمه بأنه يطلق. وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية. وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين بأن زيدًا عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه"

فلما قضى زيد من زينب وطرًا، وعاشرها معاشرة الزوج زوجه زوجناكها أيها الرسول الكريم والنبي العظيم من فوق سبع سماوات زينب بنت جحش، لكيلا يكون على المؤمنين حرج وضيق من زواج المتبنى مطلقة متبناه ودعيه، إذا قضى الدعي من زوجته وطرًا، وعاشر زوجته معاشرة الأزواج. وكان أمر الله تعالى مفعولا.

ما كان على النبي صلى الله عليه وسلم من حرج وضيق فيما فرض الله تعالى له وأحل، ومن ذلك زواجه صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها. تلك هي سنة الله تعالى في المرسلين والنبيين الذين خلوا من قبل ومضوا. وكان أمر الله تعالى قضاءً مقضيًا.

إنهم الذين يبلغون رسالات الله تعالى ويخشونه ولا يخشون أحدًا سواه. وأنت يا محمد رسول الله وخاتم النبيين. وكفى بالله محاسبًا لأعمال خلقه ومجازيهم عليها ثوابًا أو عقابًا.

ما كان محمد صلى الله عليه وسلم أبا أحد من رجالكم، فليس صلى الله عليه وسلم أبا زيد بن حارثة ولا غير زيد، فكل أولاده صلى الله عليه وسلم الذكور توفوا أطفالا دون سن البلوغ. ولكن كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله تعالى وخاتم النبيين، فلا نبي بعده صلى الله عليه وسلم. وفي ختم النبوة ختم للرسالة، لأن النبوة الطريق الوحيد للرسالة.

وكان الله تعالى بكل شيء عليما، فلا يخفى عليه جل وعلا شيء في الأرض ولا في السماء.

« آيات الحجاب »

زوّج الله تعالى رسوله محمّداً صلّى الله عليه وسلّم من فوق سبع سماوات من زينب بنت جحش بعد انقضاء عدّتها، فنفّذ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحي الله تعالى إليه، ودخل على زينب رضي الله تعالى عنها، وأوْلَمَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وجاء المدعوّون فطعِموا حتّى لم يبقَ أحدٌ يُدْعَى، فأمر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم برفع الطّعام. وقد ظلّ ثلاثة أشخاص يستمتعون بالحديث، في الوقت الّذي كانت فيه أمّ المؤمنين زينب بنت جحش موليةً وجهها إلى الحائط (1) دون أن يفطن الثّلاثة الأشخاص إلى أنّهم بالاستئناس بالحديث بعد تناول الطّعام قد آذوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها وأهل البيت.

إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يستحي من هؤلاء الثّلاثة الأشخاص أن ينبّههم لخطئهم، كما يستحي صلّى الله عليه وسلّم من الّذين يأتون إلى الطّعام في بيته من دون دعوة، أو الّذين يأتون مبكّرين منتظرين نضج الطّعام.

علم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بخروج الثّلاثة الأشخاص أو أعلمه خادمه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه بخروجهم. عاد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى بيته

---

(1) تفسير الطّبري ٢٢/٢٥

الذي خرج منه بعد أن زار أمهات المؤمنين، بينما يخرج الأشخاص الثلاثة.

لقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته حتى إذا وضع رجله في خشبة الباب التي يوطأ عليها داخلة وأخرى خارجة، أرخى صلى الله عليه وسلم الستر بينه وبين أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، ونزلت آية الحجاب (١) والآية الكريمة التي تليها (٢).

قال أنس فكنت أصغر علي قبل الناس، فأنا أحدث الناس بهن سنا (٣) قال تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

---

(١) فتح الباري ٨/٥٢٧ حديث رقم ٤٧٩٣

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٤٤٢ و ٤٤٣

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٤٤٢

المعنى: والله تعالى أعلم، يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم بالدخول لتناول طعام غير متحينين نضجه (١) ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله (٢) فإذا طعمتم فتفرقوا واخرجوا من منزله (٣) وغير مستأنسين لحديث بعد تناول الطعام.

إن استئناسكم لحديث بعد تناول الطعام كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فيستحي منكم والله تعالى لا يستحي من الحق ومن تبيين آداب القرآن لكم.

وإذا سألتم أيها المؤمنون أمهات المؤمنين والنساء المؤمنات متاعًا من كل ما يتمتع به وينتفع فاسألوهن من وراء حجاب. إن السؤال من وراء الحجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن.

وما كان لكم أيها المؤمنون وما جاز ولا صح أن تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا. إن ذلكم كان عند الله تعالى ذنبا عظيما وإثما كبيرا.

إن تبدوا شيئا من ذلك أيها المؤمنون أو تخفوه فإن الله تعالى كان بكل شيء عليما.

ثم ذكرت الآية الكريمة الثالثة من سورة الأحزاب المدنية الكريمة المحارم من الرجال الذين لا تشملهم آية الحجاب.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٢٥

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٢٦

(٣) تفسير الطبري ٢٢/٢٦

لقد تحدثت عن معاني هذه الملابسات قصيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها فقالت . .